

الوسائل الحجاجية ودورها في بناء الخطاب السياسي - خطبة يزيد بن الوليد أنموذجاً -

ARTICLE TITLE: THE MEANS OF ARGUMENTATIONS AND ITS ROLE IN BUILDING POLITICAL DISCOURSE – DISCOURSE OF YAZID IBN MU'AWIYAH IS A MODEL-

* بن قناب سعاد

souadbenguenab27@hotmail.com

د. طانية حطاب

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية في الجزائر من العهد التركي إلى نهاية القرن العشرين

جامعة عبد الحميد بن باديس بمستغانم (الجزائر)

تاريخ النشر: 2020/09/14

تاريخ القبول: 2020/07/20

تاريخ الإرسال: 2019/03/10

الملخص:

يعدّ الحجاج ظاهرة ملازمة لإنتاج الخطاب عند البشر، وما من خطاب يخلو من حجاج، فهو يسعى دائماً إلى تحقيق الإقناع والتأثير بغية ضمان العملية التواصلية بينهم، لذا نجد موضوع الخطابة قد حظي باهتمام كبير منذ القدم عند العرب والغرب عامة، لكونه الموضوع الذي ازدهر في بيئته وترعرع، فتدعو إليه حاجة العصر الحاضر، كما دعت إليه حاجة العصور الغابرة من قبل.

وقد ذلك وقع اختيارنا على خطبة يزيد بن الوليد من تراثنا الزاخر والوافر على مرّ التاريخ، وخصوصاً في تلك الفترة الأموية التي كانت أقرب فترة لعهد الراشدين والخلافة النبوية لنذكر ما مدى أهمية هذه الخطبة في اعتلاء صاحبها عرش الخلافة؟ وكيف أسهمت بفضل آلياتها الحجاجية في تحقيق التأثير والاستمالة لدى الرعية؟ وهل كل حجاج يكون دائماً صادقاً يبحث عن الحقيقة دون غيرها؟

الكلمات المفتاحية: الحجاج/ الوسائل الحجاجية/ الخطابة/ الإقناع/ يزيد بن الوليد/ الوليد بن يزيد.

Abstract :

The argumentation phenomenon on inherent to produce the speech at the humans, and no speech is empty from argumentations who always trying to achieve persuasion and influence, in order to ensure that the process communicative among them.

The subject of rhetoric has received great attention among the Arabs and the west in general, because it the subject

that flourished in his environment and grew up, as the need of the present age calls for it, as the ancient age called it.

From this we chose the sermon of Yazid Ibn Al-Walid from our heritage, wich is rich in history, especially in the Umayyad period, which was the earliest period of the era of adults and the caliphate.

Do you realize the importance of this sermon in attaining the throne of the caliphate ? And how did it contribute thanks to its argumentations in the realization of the connection and influences of the parish ? And are all argumentations always be an honest see her of truth ?.

KEY WORDS: ARGUMENTATION/ THE MEANS OF ARGUMENTATIONS/ RHETORIC/PERSUASION/

YAZID IBN AL-WALID/ AL-WALID IBN YAZID.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

تعدّ الخطابة فنا حجاجيا بالدرجة الأولى، إذ يشكل الحجاج البعض من مجموع الحقول المعرفية التي تلون هذه المساحة على طول إمتدادها ومنذ أن نزل الحجاج بالخطابة واستقرّ بها، كثرت بضاعته في هذه الصنّاعة، حيث ازدهرت بفضلها الدّراسات البلاغية المعاصرة، وهذا إن دلّ على شيء، إنّما يدلّ على أنّه على قدر كبير من العظمة والأهميّة.

يتبيّن لنا من هذا المنطلق أنّ الحجاج نقل البلاغة بصفة عامة، والخطابة بصفة خاصة إلى جَوِّ يَعُجُّ ويزخر بالحيويّة، وجعل موضوعاته ميدانًا خصبًا يَجُولُ فيه كلّ خطيبٍ بليغٍ ولسان فصيحٍ يتقن ألوانًا شتى من التعبير التي تنثر سحرًا وتضفي جمالاً بروعتها لكلّ من استحسن أن يكون لؤلؤة من الكنوز الدّفينّة في بحرٍ كبيرٍ اسمه البلاغة.

رُبّما لمن أراد أن يَحْظَى بحسن الضّيّافة في مجال واسع كهذا يستحسن له أن يطرق باب الحجاج الذي حظي برواجٍ واسعٍ في الدّراسات البلاغية المعاصرة، انطلاقًا من تلك الجهود التي تبلورت حديثًا مع بيرلمان وتيتيكاه وغيرهما كثير، وعليه اخترنا خطبة تراثيّة وحاولنا فيها تَقْفِي الأثر الحجاجي، وإبراز أهمّ آلياته ووسائله التي ترمي بكلّ ثقلها نحو تحقيق الإقناع لدى المتلقي.

مفهوم الحجاج لدى العرب القدامى:

لقد عرف العرب القدامى مصطلح الحجاج، وأفاد منه الكثيرون في هذا المجال، خاصة أصحاب المعاجم والمصادر التي شكّلت تراثنا القديم، ومن ذلك نجد ابن فارس يعرفه بقوله: "حَاجَجْتُ فُلَانًا فَحَاجَجْتُهُ أَي غَلَبْتُهُ بِالْحُجَّةِ، وَذَلِكَ الظَّفَرُ يَكُونُ عِنْدَ الْخُصُومَةِ، وَالْجَمْعُ حُجَجٌ، وَالْمَصْدَرُ الْحِجَاجُ"¹. ومعناه أنّ الحجاج يزهر عند الخصومة، وذلك بإقامة الحجّة، قَصْدَ كَسْبِ التأييد والتّفوق على الخصم عند وقوع المنازعة أو المجادلة الكلامية بين الأشخاص.

أمّا ابن منظور يعرفه كذلك بقوله: "يقال حَاجَجْتُهُ أُحَاجُّهُ حِجَاجًا وَمُحَاجَّةً حَتَّى حَاجَجْتُهُ أَي غَلَبْتُهُ بِالْحُجَجِ الَّتِي أُذْلِيْتُ بِهَا (..) ويقال: حَاجَّهُ، مُحَاجَّةً وَحِجَاجًا نَازَعَهُ الْحُجَّةَ (...) واحتجّ بالشيء: اتخذَه حُجَّةً (...) والحجّة الدليل والبرهان (...) "²، يلاحظ أنّ هذا التعريف يشترك في بعضٍ من المعنى مع تعريف ابن فارس للحجاج، وذلك عندما اتّفقا على أنّ المحَاججة تتطلّب إقامة الحجّة التي تؤدي بك إلى التغلب على خصمك، إلى أن ابن منظور يعتبرها هي نفسها الدليل والبرهان الذي يحتاجه الإنسان في موقف ما يقع، يتطلّب منه الردّ على نفسه.

أمّا الزمخشري فيقول فيه: "إذ يقال حَجَجَ: احتجّ على خصمه بحجّة شهباء، وبحججٍ شهبٍ، وحاجّ خصمه فحجّه، وفلان خصمه مخجوج، وكانت بينهما مُحَاجَّةٌ ومُلاجّةٌ"³.

يُشار إلى أنّ عملية الحجاج أو المحاجة تكون دائماً بين الأخذ والردّ بين الخصوم، والخصم الذي يكون مخجوج وهو الذي يكون مغلوباً.

مفهوم الحجاج لدى المحدثين:

إنّ مصطلح الحجاج (l'argumentation) كما عهدناه في البلاغة الغربية الحديثة والمعاصرة، قد اشتهر مع العالمين بيرلمان (Perelman) وتيتيكاه (Tyteca) من خلال مصنفهما مُصنّف في الحجاج والخطابة الجديدة (Traité de l'argumentation et la nouvelle rhétorique) سنة 1958م، حيث نجدهما يقولان بشأنه: "موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيّات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"⁴.

ونفهم من خلال ذلك أنّ مجموع الحجج التي يتمثلها المرسل/الخطيب (l'éditeur) حول موضوع ما يؤيده فيؤجّجها إلى ذهن المرسل إليه (Le récepteur) أي المستمع/المتلقي والقصد من ذلك جعله يسلم بقوة ما يُعرض عليه من أطروحات ومواضيع يتبنّاها الخطيب.

نواصل الحديث عن الحجاج مع أزوآلد ديكر (Oswald Ducrot) وجون كلود أنسكومبر (Jean Claude Anscombe) باعتباره مكوّنًا من مكونات البنية اللغوية أو بالأحرى طاقة مكنونة يستخدمها المتكلم عند الانخراط والشروع في العملية الحجاجية، حيث ينطلق ديكر من الفكرة الشائعة التي مفادها "أننا نتكلم عامة بقصد التأثير"⁵ أي أن كل قول يحتوي على فعل إقناعي وبالتالي لا وجود لكلام دون شحنة حجاجية، وهذا يؤكد بالفعل أنّ اللغة في حدّ ذاتها تملك إمكانات حجاجية هائلة توجه بها الخطاب عند إصداره.

نشير إلى المفهوم فيما يخصّ العرب المحدثين، حيث نجد الكثير من هؤلاء الباحثين التّفوا حول موضوع الحجاج يعجّلون بالمفهوم اصطلاحاً ويحاولون إثبات أصول علاقته بالبلاغة العربية في ظل بلورة هذا المفهوم مع انطلاقته الجديدة مع أواخر خمسينات القرن الماضي، وهاهو ذا طه عبد الرحمن يعرف الحجاج باعتباره: "كلّ منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحقّ له الاعتراض عليها"⁶. والمرجّح في تأويل هذا المفهوم يؤكد على أهميّة الدّعوى المخصوصة القائمة بين المتكلم والمتلقي التي تتحكّم فيها اللغة باعتبارها الوسيلة المناسبة التي تسهم في سيرورة الحجاج وما ينجم عنه من تحقيق فعل الإقناع والتأثير أو الاعتراض من طرف المتلقي، والمخاطب الذي يقوم بالمطالبة بالدليل على قول المدعي كما صرح به فيما يخصّ «المعترض».

ترجمة يزيد بن الوليد:

ولد يزيد بن الوليد بدمشق 90هـ، وأمّه شاهفريد بنت فيروز بن يزد جرد بن كسرى وكان رجلاً صالحاً، نقم على ابن عمّه الوليد بن يزيد بسبب ما انتهكه من حرّات، وقتله لذلك: حيث كان يقال: الأشبح

والنَّاقص أعدلا بن مروان، والمراد بالأشبح عمر بن عبد العزيز، والنَّاقص يزيد بن الوليد، وعرف بهذا الاسم على لسان ابن عمّه «مروان بن محمّد» ذلك أنّه أنقص ما زاده الوليد على الأعطيات.

بُويَع للخلافة بعد مقتل ابن عمّه الوليد بن يزيد في 28 جمادى الآخرة عام 126هـ، وتوفي بالطّاعون في 07 ذي الحجة من العام نفسه. وبهذا دامت خلافته مدة ستة أشهر وحياته مدة ست وثلاثين سنة⁷.

ترجمة الوليد بن يزيد:

الوليد بن يزيد هو الخليفة الأموي الحادي عشر وحفيد الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان، ولمّا توفي هشام بن عبد الملك سنة 125 هـ خلفه الوليد، حيث يقال: كان من فتیان بني أميّة وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم، منهمكًا في اللّهُو والشّراب وسماع الغناء، مُسْتَهْتِرًا بالمعاصي، عاكفًا على اللذات، منتهكًا للحرّمات، زنديقًا.

يذكر له أنّه كان شاعرًا مجيدًا في الخمر خاصة، وأبدع فيه فقال:

أصْدَعُ نَجِيّ الْهُمُومِ بِالطَّرَبِ وَأَنْعَمُ - عَلَى الدَّهْرِ - بِابْنَةِ الْعِنَبِ
وَاسْتَقْبِلِ الْعَيْشَ فِي غَضَارَتِهِ لَا تَقِفْ مِنْهُ آثَارَ مُعْتَقِبِ
وكذلك قال:

فَقَدْ تَجَلَّتْ، وَرَقَ جَوْهَرُهَا حَتَّى تَبَدَّتْ فِي مَنْظَرٍ عَجَبِ
فَهِيَ بَغِيرُ الْمَرَاكِجِ مِنْ شَرَرِ وَهِيَ لَدَى الْمَرْجِ سَائِلُ الدَّهَبِ
كَأَنَّهَا فِي زَجَاجِهَا قَبَسٌ تَذْكُوفِي عَيْنِ مُرْتَقِبِ

فقد ساء منه النَّاسُ تصرفاته، وبدى الأمر حجة بليغة اغتياله خاصة من قبل الطّامعين إلى الخلافة، وكان ذلك سنة 27 جمادى الآخرة 126هـ⁸.

نص الخطبة:

قالوا قالوا (٢): ولمّا قتل يزيد بن الوليد ابن عمّه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان (٣) قام خطيبًا بعد أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

والله يأيها النَّاسُ (٤)، ما خرجتُ أشراً ولا أبطراً، ولا حريصاً على الدّنيا، ولا رَغْبَةً في الملك، وما بي إطرأ نفسي، وإني لَطَلُومٌ لَهَا، ولقد خَسِرْتُ إِنْ لَمْ يَرْحَمْنِي رَبِّي، وَيَغْفِرْ لِي ذَنْبِي (٥) وَلَكِنِّي خَرَجْتُ غَضَبًا لِلَّهِ وَلِدِينِهِ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، لَمَّا هُدِمَتْ مَعَالِمُ الْهُدَى، وَأُطْفِئَ نُورُ التَّقَى (٦) وَظَهَرَ الْجَبَّارُ الْعَنِيدُ، وَكَثُرَتْ حَوْلُهُ الْحِرَقُ وَالْجَنُودُ (٧) الْمُسْتَحِلُّ لِكُلِّ حُرْمَةٍ، وَالرَّاكِبُ لِكُلِّ بِدْعَةٍ، مَعَ أَنَّهُ وَاللَّهِ مَا كَانَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ، وَلَا يُصَدِّقُ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. وَإِنَّهُ لَابْنُ عَمِّي فِي النَّسَبِ وَكُفْيِي فِي الْحَسَبِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ اسْتَخَرْتُ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ،

وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَكِلَنِي إِلَى نَفْسِي، وَدَعَوْتُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَجَابِي مَنْ أَهْلٍ وَلَا يَتِي، حَتَّى أَرَاكَ اللَّهُ مِنْهُ الْعِبَادِ، وَطَهَّرَ مِنْهُ الْبِلَادَ، بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ، لَا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ أَلَّا أَضَعَ حَجَرَ عَلَى حَجَرٍ، وَلَا لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ، وَلَا أَكْرِى نَهْرًا (١) وَلَا أَكُنْزَ مَالًا، وَلَا أُعْطِيهِ زَوْجًا وَلَا وَلَدًا، وَلَا أَنْقُلَ مَالًا مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ حَتَّى أَسُدَّ فَقْرَ ذَلِكَ الْبَلَدِ وَخَصَاصَةَ أَهْلِهِ، بِمَا يُغْنِيهِمْ، فَإِنْ فَضَلَ فَضْلُ (٢) نَقَلْتُهُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي يَلِيهِ مِمَّنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنْهُ. وَلَا أَجْمَرُكُمْ فِي ثُغُورِكُمْ (٣) فَأَقْتِنُكُمْ وَأَقْتِنَ أَهْلِيكُمْ، وَلَا أَغْلِقُ بَابِي دُونَكُمْ فَيَأْكُلُ قَوِيَّتُكُمْ ضَعِيفُكُمْ، وَلَا أَحْمِلُ عَلَى أَهْلِ جَزِيَّتِكُمْ مَا أَجْلِيهِمْ بِهِ عَنْ بِلَادِهِمْ، وَأَقْطَعُ نَسْلَهُمْ، وَلَكُمْ عِنْدِي أَعَاطِيكُمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ، وَأَرْزَأُكُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ، حَتَّى تَسْتَدِرَّ الْمَعِيشَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَكُونَ أَقْصَاهُمْ كَأَدْنَاهُمْ. فَإِنَّا أَنَا وَقَيْتُ فَعَلَيْكُمْ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ، وَحَسَنَ الْمُوَاظَرَةَ وَالْمَكَانِفَةَ (٤). وَإِنَّا أَنَا لَمْ أُؤْفِ لَكُمْ (٥) فَلَكُمْ تَخْلَعُونِي، إِلَّا أَنْ تَسْتَيْبُونِي، فَإِنَّا أَنَا نُبْتُ قَبْلَتُمْ مِنِّي، وَإِنْ عَرَفْتُمْ أَحَدًا يَقُومُ مَقَامِي مِمَّنْ يُعْرِفُ بِالصَّلَاحِ، يُعْطِيَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ مِثْلَ مَا أُعْطِيَكُمْ، فَأَرَدْتُمْ أَنْ تُبَايَعُوهُ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعَهُ، وَدَخَلَ فِي طَاعَتِهِ (٦).

أَيُّهَا النَّاسُ: لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا (٧) وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ^٩.

كَوْنُ الخطابة أعظم مؤهل للإقناع، إذ يراه البعض ملكًا خاصًا لها، فالملاحظ عن الخطيب من المنزلة التي يتحدث منها، فهو مُلْزَمٌ بتحقيق الإقناع لدى الرعية، وإلا كيف ستستوي الخلافة في ظروف يسودها القلق والاضطراب، وعلاقة يُخَيِّمُ عليها الظلام بينه وبين الرعية. فحاول بذلك أن يكون الشخصية التي يجتمع حولها كافة الناس لإدارة الحكم، ومع ذلك تبقى المثالية في صورة يصعب الوصول إليها، نجد لكل مسؤول مزايا تذكر له وماخذ تسجل عليه، ولذلك أدت الوسائل الحجاجية عملاً ودورًا كبيرين في هذه الخطبة نذكر منها:

أولاً: الوسائل اللغوية

تتنوع دلالة الأفعال اللغوية في الخطاب، وتنوعها محكوم بقصد المرسل، وعليه نجملها فيما يلي:

(١) القسم:

نرى يزيد في بداية الخطبة بعد أن حمد الله وأثنى عليه، يعجلُ بالتبرير وإقامة الحجة أمام الناس، ويحاول أن يشعرهم بصدق القول، فنجد أنه يصدر كلامه بالقسم وهو إنشاء غير طلبية « ويكون بأحرف ثلاثة تجرّ ما بعدها وهي "الباء"، "الواو"، "التاء"، كما يكون بالفعل "أقسم" أو ما في معناه من مثل "أحلف"^{١٠}. واستعمله الخطيب ليدلي به إلى تبرئة نفسه، فيحاول إقناع المتلقي بما يغدقه عليه من فضائل يتمتع بها، علّها تشفع له في مشاركته الرأي من طرف الآخر، فهو يشكّل بذلك ضغطاً كبيراً عليه فيجعله موضع الإلزام والتبعية له.

ورد ذلك بعبارة صريحة (والله يأيتها الناس ما خرجتُ أشراً ولا أبطراً، ولا حريصاً على الدنيا...) يتبين لنا أنّ الخطيب يسعى إلى جذب الانتباه بواسطة النداء (يأيتها الناس)، والسيطرة على متلقيه (الرعية) منذ الوهلة الأولى بواسطة القسم (والله) ثمّ بالنداء عليهم وجوابه كان منفياً ومقروناً بحرف النفي «مَّا وَلَا»، لذلك وَرَدَ القسم في صورة تفيد ضرباً من التأكيد والتوكيد، تتضمّن إشعاراً من الخطيب بأنّ ما يقسم عليه أمراً مؤكّداً عنده لا شكّ فيه، وإلّا لما أقسم عليه قاصداً متعمداً. لاسيما أنّ القسم له مكانته الخاصّة عند المسلمين، ولا يجوز للمسلم أن يستعمله في غير موضعه من الكلام، والغرض من توظيفه أن يزيد ضمّن كلامه ثقة وثباتاً وقوة، ليعزّز موقفه لدى جمهوره ممّا سيَرُدُّه من قول فيما بعد على مسامع الرعية.

نجد الخطيب يواصل سرد حججه التي تلت القسم مباشرة، ممثلاً لذلك بأسلوب النفي حيث اتخذ شكل النفي هنا وسيلة يبرر من خلالها ما يمكن أن يظنّه الناس به، خاصّة أنّ الخليفة السابق (الوليد) لم يذكر أنّه تنازل عن الخلافة والحكم برغبة منه، بل أشارت كثير من المصادر الخاصّة بتاريخ الخلافة الأمويّة وحسب إطلاعنا أنّه مات مقتولاً وكان يزيد سبباً في ذلك، لذلك اقتضى منه الظرف والوضع أن ينفي عن نفسه كلّ تلك الشّمّهات التي تسيء إلى سمعته، فحاول أن يظهر الجانب الحسن من شخصيته.

يتمثّل ذلك في قوله (... ما خرجتُ أشراً ولا أبطراً، ولا حريصاً على الدنيا، ولا رغبةً في الملك، ومّا بيّ إطرأ نفسي، وإنّي لظُلُومٌ لَهَا ...)، والغرض منه المثبت عن طريق القسم نفي الصّفات والنّوايا السيئة في اعتلاء مقاليد الحكم، وكون الرّجل يتمتّع بفكر اعتزالي كما ورد في مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن بن علي المسعودي، فكان يرى الوضع السائد قبله مدعاة للفساد وتجاوزاً لمبادئ المعتزلة وخاصة المبدأ الذي ينتهي إلى (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، ليستمرّ في التأكيد لما بدأ به ثمّ يَصِلُ إلى نتيجة أثمرت عن طائفة من الحجج والمتمثلة في قوله: (... وَلَكِنِّي خَرَجْتُ غَضَبًا لِلَّهِ وَلِدِينِهِ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ). وذلك أنّ الحجج المطروحة، استدركت نهايتها بنتيجة توضح موقفه حاول من خلالها أن يتسلّل إلى نفوس متلقيه ويحقق غرضه الإقناعي من شموخ المكانة التي يعلوها منصبه، ويندرج هذا ضمن الأهداف التي يسعى كلّ خطيب إلى إنجازها لإنجاح خطابه الحجاجي.

(2) النداء:

شكل النداء دعامة من المقوّمات الأساسية من بداية الخطبة إلى نهايتها، والذي يعرف بـ « طلب الإقبال أو تنبيه المنادي، وحمله على الالتفات بأحد حروف النداء، أو أنّه ذكر اسم المدعو بعد حرف من حروف النداء »¹¹. ويندرج ضمن الإنشاء الطلبي، والذي يتمثّل في الخطبة بعبارة (يأيتها الناس) ففي هذه الجملة جاءت لتعبّر عن المقام، فهو يخاطب الناس لهذا يناديهم، وتركب الجملة من أداة النداء "يا" و"أي" و"هاء التنبيه" والمقصود بالنداء لفظ الناس.

ورد في المرة الأولى: تنبيهاً للمتلقى (الناس) الذي تلقى الرسالة بدافع القسم الذي مهد الطريق للخطيب وفتح المجال أمام جمهوره للإنصات إلى تلك المجموعة التي أودعها من الحجج، للتبرير فيما يسعى إليه من بلوغ المقصد الذي يرمي إليه.

استعمل في المرة الثانية العبارة نفسها (أيها الناس) ليوحي بذلك إلى المحافظة على شد انتباه السامعين دائماً وإثارة روح الإصغاء والمتابعة فيهم لما يقوله، متبعاً في ذلك منهجاً يحقق هذا الغرض، وخاصة لما انتهى إلى تهيئة المتلقي في المرحلة الأولى من الخطبة، فشرع في المرحلة الثانية لشرح منهجه الذي أرسى قواعده وتضمن الدعائم الأساسية والمثالية التي تصلح لقيام حياة الأمة، إذ فكيف لا يُصغي الإنسان إلى أمر يهّمه فعلاً!

لجأ إليه الخطيب في المرة الثالثة مشيراً إلى المتلقي بعد عرض حججه حاول على إثرها تبرير موقفه اتجاه الوضع وكان ذلك في المرحلة الأولى، ورسم منهجه كبديل لمن سبقه في المرة الثانية لينبّه السامع في آخر مرة ينادي فيها عليه، ويمثل ذلك بحجة قطعية، يتضمن محتواها ما مفاده أنه والرعية سواسية أمام الله، ولا تجب طاعة لمخلوق عندما يتعلق الأمر بمعصية الخالق، ولعل حينها يستقر في الأذهان والنفوس ما كان يطمح إليه الخطيب، وهنا يكمن الغرض الحجاجي من توظيفه لأسلوب النداء الذي حافظ على استمرارية الخطاب من أوله إلى آخره بين الخليفة ورعيته. وعليه فالقيمة الحجاجية لقول ما هي نوع من الإلزام يتعلق بالطريقة التي ينبغي أن يسلكها الخطاب بخصوص تنامي واستمراره تماماً كما حدث في هذه الخطبة.

(3) التوكيد:

يُعرف يحي بن حمزة العلوي التوكيد بقوله « اعلم أنّ التأكيد تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك وإمالة الشبهات عما أنت بصده، وهو دقيق المأخذ، كثير الفوائد... »¹² فقد عمّد إليه الخطيب نتيجة تأكيده وإثباته لما يعرضه من حجج على سامع الرعية، ويسعى من خلال ذلك دائماً إلى تعزيز موقفه، ويتضح في بعض النماذج الآتية:

(وَمَا بِي إِطْرَاءُ نَفْسِي، وَإِنِّي لظُلُومُ لَهَا)، يشير الخليفة في توكيده هذا إلى تأكيد مجموعة من الحجج التي كان قد سردها مسبقاً، حيث ابتعدت فيها نفسه كما يصف عن الطمع والجشع وغيرها، ليتلوها مباشرة بعبارة التوكيد، وذلك بإن مقرونة بياء المتكلم (إِنِّي لظُلُومُ لَهَا)، فحدّدت المعنى الذي ورد في سياق معيّن، يثبت فيه ولنفسه أنه يتنازل عن كثير من الأمور لفائدة الصّلاح والإصلاح لغيره.

ورد كذلك التوكيد (بإنّ) في مطلع الفقرة الثانية من الخطبة بعد النداء مباشرة، ويظهر ذلك في هذه الجملة: (أيها الناس، إنّ لكم عليّ ألا أضع حجراً على حجرٍ...)، وهنا يُعمّق الخطيب فكرة الوعود التي يُؤمل بها الرعية في المستقبل القريب، عن طريق الأداة (إنّ) المكسورة الهمزة والمشددة النون وعليه فالعبارة في طبيعتها تحمل دلالة الإثبات لما يقوله، إضافة إلى أسلوب التكرار الذي ورد في المثال نفسه، وذلك بتكرار لفظة الحجر، ولبنة، إذ يعدّ من الأساليب اللغوية التي لجأ إليها الخطيب، حيث تحظى بجمال العبارة

وتوكيد المعنى، لَمَّا يحتاج إليها المتكلم في مواضع يستدعيها منه الظرف والمقام وعند الحاجة إليها لتعزيز موقفه.

وظف الخطيب كذلك من بين أنواع التوكيد، التوكيد بالقسم، والذي ورد كذلك في مطلع الفقرة الأولى وقد لجأ إليه المتكلم، لأنه من أقوى الأنواع التي يمكن أن تحقق الإقناع لدى المتلقي، وكنا قد أشرنا إلى ذلك لَمَّا تناولنا (القسم).

(4) الشرط:

برز الشرط بطابعه الحجائي شأنه شأن العناصر الأخرى التي شكلت الخطبة، حيث يُرادُ به «الربط بين حدثين يتوقف ثانيهما على الأول»¹³. ولذا ما يظهر لنا من إفادة الشرط، هو أنَّ الخطيب يولي اهتماماً بتوليه الخلافة وإدارة شؤون الحكم، وإنَّ الدارس ليدرك ذلك بوضوح على مدى حرصه على ذلك ليوضح ما يراه. وبما أنَّ معنى الشرط يتطلب في الغالب جملاً فعلية فهذه بعض النماذج على ذلك:

- أَفَإِنْ فَضَلَ فَضْلُ نَقْلَتُهُ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي يَلِيهِ مِمَّنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنْهُ.
- فَإِنْ أَنَا وَقَيْتُ فَعَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَحَسَنَ الْمُوَاظَرَةِ وَالْمَكَانِفَةِ. وَإِنْ أَنَا لَمْ أُوفِ لَكُمْ فَلَكُمْ تَخْلَعُونِي...
- وَإِنْ عَرَفْتُمْ أَحَدًا يَقُومُ مَقَامِي مِمَّنْ يُعْرِفُ بِالصَّلَاحِ، يُعْطِيكُمْ مِنْ نَفْسِهِ مِثْلَ مَا لَأَعْطِيكُمْ، فَأَرَدْتُمْ أَنْ تُبَايَعُوهُ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعَهُ، وَدَخَلَ فِي طَاعَتِهِ.

نلاحظ من هذه النماذج التي وردت بين أيدينا، أنَّ الخليفة استعمل أسلوب الشرط في موضع حساس في ثنايا هذه الخطبة بعدما عمد إلى التذكير بأخلاق ابن عمه الوليد بن يزيد، والتي وصفها بالسوء على حدِّ قوله، وأقلَّ ما يمكن القول عنها أنَّها لا تليق بمثل خليفة في مقامه، ثم بعد ذلك هيأ المتلقي وحصره في زاوية عميقة من هرمه الحجائي، وشرع في المقابل إلى إظهار شيء من مكارم أخلاقه وسمو مبادئه، فوظف الشرط كحجة بليغة، قصد بها إقناع جمهوره.

نرى الجمل الواقعة جواباً للشرط كلها تصبُّ في مسعى واحدٍ، يحاول فيها الخطيب إثبات نزاهته وشرط النزاهة بدوره إذا تحقق أقنع، وذلك هو الغرض الحجائي من توظيف الشرط.

ففي الجملة الأولى يتمثل جواب الشرط في الفعل (نَقْلَتُهُ) وما يليه، ويقصد به المال، وهو بذلك يوسع دائرة التضامن والرحمة.

أما في الجملة الثانية وَرَدَ على صيغة فعل أمر وإلزام (فَعَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ)، ولا تكون الطاعة إلا للصالح، ذو العقل المتزن والتصرف الحكيم.

أما في الجملة الثالثة وَرَدَ جواب الشرط في عبارة (فلکم أن تخلعونني)، وذلك طبقاً لكسروعوده إذا تراجع عنها، والمتعلقة بجملة الشرط (إن أنا لم أوف لكم).

ثانياً: الوسائل البلاغية:

(1) حجاجية الصورة:

1-1 الاستعارة:

جاءت حجاجية الصورة البلاغية في خطبة يزيد بن الوليد لتقريب الفكرة النابعة من مقصده الذي يعكس الوضعية التي يتحدث منها (موقف القوة) وهذا يرمي بطبيعة الحال إلى التأثير في السامع، ونجد الاستعارة التي مثلت إحدى المحطات التي ساعدت في توصيل الرسالة إلى المتلقي.

وكان قد عرفها أبو الحسن الرماني بقوله: «الاستعارة استعمال العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة»¹⁴، واستعملت عند العرب لتأسيح مقدرتهم على الكلام، ومعرفة ضروبه.

ركز الخطاب الحجاجي عند لزوم الحاجة إليها، ويظهر ذلك عند الخطيب في الفقرة الثانية، لما حاول أن يبين أنه يتمتع بخصال حميدة شفعت له أن يكون خليفة عادلاً ومسؤولاً عن شؤون الناس وأحوالهم، وبرزت تلك الصورة في قوله: (...وَلَا أَغْلِقْ بَابِي دُونَكُمْ فَيَأْكُلَ قَوِيَّكُمْ ضَعِيفَكُمْ...)، ونفهم من ذلك أن الخطيب يعد الناس علانية بأنه سيأتي كل ذي حق حقه، والمساواة بين القوي والضعيف من الأولويات الضرورية التي سيعمل على تحقيقها حينذاك.

كان التركيز في هذه العبارة التي ذكرناها على جزئية هامة والمتمثلة في: (فَيَأْكُلَ قَوِيَّكُمْ ضَعِيفَكُمْ)، مشيها الإنسان القوي المتجبر والظالم بالحيوان المفترس، الذي يجعل محيطه ضحية له، وهكذا حال القوي بالنسبة للضعيف، مدلاً على ذلك بقرينة دالة (يَأْكُلُ)، وكان ذلك على سبيل الاستعارة المكنية، وهو بطبيعة الحال يمنع حصول هذا بواسطة أسلوب النفي الذي تصدر هذه الجملة. والصورة بطابعها الحجاجي تهدف إلى تحقيق العدل والمساواة، مما يزيد الحمل على الإقناع، وإذهان عقول سامعيه أمام الوضع الراهن والوعود التي قدمها أمام الملأ.

2-1 التشبيه:

ظهر التشبيه كلونٍ أخبر بياني أدى وظيفته الحجاجية على أتم وجه، حتى ولو كان ذلك في مواضع قليلة من الخطبة، وكان شأنه شأن الاستعارة من دواعي استعمالها. خلص بهما صاحبهما إلى الاقتراب من فكرٍ وعاطفة متلقيه.

وحد التشبيه: «هو صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته»¹⁵.

ويعني بذلك أنّ التشبيه والاستعارة جميعاً يخرجان الأغمض إلى الأوضح، ويقربان البعيد كما شَرَطَ الرّماني في كتابه، وهذا حسب ما وَرَدَ في كتاب العمدة لابن رشيق.

تبرز صورة التشبيه في ثنايا الخطبة وبقوله: (فيكون أقصاكم كأدناكم)، حيث تمثل هذه الصورة كنتيجة لمجموعة من الحجج التي سبقتها، كلّها تدور حول استِدَارَةِ المعيشة بين المسلمين وتقسيم الأرزاق بينهم بالعدل، فأتى ذلك على سبيل التشبيه بين الأقصى والأدنى على امتداد الرقعة الجغرافية التي يقطعها المسلمون لاشتراكهما في قيمة العدل المعنوية، التي هي أساس وعماد كلّ عمل يصبو صاحبه إلى تحقيق فعل خير.

1-3 الكناية:

ترقى الكناية باعتبارها من أبلغ الأساليب البيانية وأزوعها في التعبير عن معنى معيّن عمَدَ إليه صاحبه، إلّا أن تداولها في نصّ نثري، بيئته حجاجية بالدرجة الأولى -الخطبة- ضَمَّنَهَا دلالة حجاجية تهدف إلى تحقيق الإقناع، ولا تقلّ أهميتها عن سحرها البياني الذي يضفي جمالاً لدى المفوهين في القول، حيث يعرفها السّكاكي: «الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح، ورمز، وإيماء، وإشارة»¹⁶، ويريد صاحبها التأكيد لمعنى وهو بذلك يفيد تأكيداً لإثبات معنى لا يفيد خلافه.

يتحقق معناها في الآتي من الخطبة (ظَهَرَ الْجَبَّارُ الْعَنِيدُ)، يبدو أنّ الخليفة يزيد من خلال توظيفه لهذه الصّورة البيانية (كناية عن موصوف) قد عمد بها إلى تعميق الوعي بنفسه من جهة، وخلق نوع من الحساسية بين الخليفة المقتول (الوليد) والرعية من جهة أخرى، لذا وجدناه يكتفي بهذه العبارة على سوء تصرفاته وتجبره على القوم والتعصب، لانتهاك حرّيات الدّين على حدّ قوله.

ثم يضيف قائلاً: (وَإِنْ عَرَفْتُمْ أَحَدًا يَقُومُ مَقَامِي مِمَّنْ يُعْرِفُ بِالصَّالِحِ، يُعْطِيكُمْ مِنْ نَفْسِهِ مِثْلَ مَا أُعْطِيكُمْ)، فنلاحظ من خلال هذه الجملة أو الصّورة أنّ الخطيب يتحدّث في سياقٍ يعقد فيه مقارنة بينه وبين غيره، ممّن هو أصلح وأنسب للخلافة في نظر العامة، فنجدّه يركّز في صورة مجازية (يُعْطِيكُمْ مِنْ نَفْسِهِ مِثْلَ مَا أُعْطِيكُمْ)،

يتبيّن من خلال ذلك، أنّه يكتفي على المكارم والأخلاق والشّيم والقيم النبيلة، ولتكنّ في جملة القول بلاغة وطاقية حجاجية تزيد من حجم الكلام تأثيراً وإقناعاً لدى المتلقي، حوّل الصّورة إلى تشبيه مرّة أخرى بفضل الأداة مثل، ومجمل ذلك يخلص إلى أنّ المتكلّم يقدم حجة واضحة يدلي فيها بأنّ همّه ليس الوصول إلى الخلافة بقدر ما همّه إصلاح أحوال الأمة. وطبيعة هذا النوع من الحجج يرجع إلى نيّة المتكلّم إذا كان مخلصاً فعلاً، أو غير ذلك.

2- حجاجية البديع:

إنّ الأشكال اللغوية التي تنتمي إلى المستوى البديعي، لا يقف دورها عند الوظيفة الشكلية التي تستهدف التحسين والزخرفة، إذ أنها تلعب دورًا حجاجيًا يسهم في العملية الخطابية بهدف الإقناع والتبليغ، ويظهر ذلك في الخطبة جليًا عند يزيد نذكر منه بعض النماذج:

1-2 السجع:

حدّه أن يقال: «تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرفٍ واحدٍ»¹⁷، ومثال ذلك: (لَمَّا هُدِمَتْ مَعَالِمُ الْهُدَى، وَأُطْفِئَ نُورُ التَّقَى)، ويتمثل السجع بين الفاصلتين في آخر اللفظتين بحرف الألف المقصورة (الهدى، التقى)، وناهيك عن خلق إيقاع يميّز شكل الكلام بلفظه، ويُعَالِقه ببعضه بعضًا، فإنّه يظهر من وراء ذلك مقصدًا آخر حجاجيًا، يمثل مركز الثقل الذي تتكئ عليه اللغة في هذا المقام، والملاحظ عن استعمال اللفظتين، بحيث تشير كل واحدة منهما إلى الحق، والإيمان، والخير، والهدى، والصّلاح، ببساطة هي مقومات تحتاج إلها كل روح مسلمة، لتقوم وفق صراطٍ مستقيم يُدلي بها إلى خلاصٍ نيرٍ مبين، وكلّ حضارةٍ يعلو شأنها وذكر اسمها في قائمة المبادئ والقيم النبيلة مع مرور السنين. ومفاد ذلك كله يعود إلى الخطيب لما أشار لهذه القيم بأنّها انتهكت ولا بدّ من المحافظة عليها وإشراق نورها دائمًا، وبذلك تعدو الثورة جائزة له وفقًا لهذا المنظور، إذن فهذا المسعى الحجاجي يبلّغ قوله ويعزّز مكانته.

وفي مثال آخر:

(الْمُسْتَحِلُّ لِكُلِّ حُرْمَةٍ، وَالرَّاكِبُ لِكُلِّ بِدْعَةٍ)، نلاحظ كذلك من وراء هذا الإيقاع المنسجم المتمثل لنا بالسجع يحمل إلينا دلالة معينة، وتظهر سماتها الحجاجية انطلاقًا من السياق الذي وردت فيه، والمعنى الذي تؤدّيه في دائرة شكل نصف قطرها الأول الخليفة الرّاحل حينذاك، والذي نُعِتَ بمعنى هذه العبارة وغيرها كثير مشكّل في هذا الخطاب، ونصف قطرها الآخر الخليفة الثاني الذي بنى سرّحًا حجاجيًا مهّد لضرورة اقتضائه الحكم.

2-2 المقابلة:

شكّلت وظيفة لا تقل أهمية عن بقية العناصر الحجاجية الأخرى، وحدّها أن: «تكون المقابلة بأن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يُقابِلُهُمَا (أي ضدّهما في المعنى) على الترتيب»¹⁸، وحينما امثل الخطيب أراد أن يؤسّر عقل المتلقي فيم يبتغي الوصول إليه، وليهّئ له من جهة أخرى حلولاً كثيرة، يحاول فيها تثبيت المتلقي في نقطة ما حول الحجة المطروحة والمتمثلة في قوله: (فإِنْ أَنَا وَقَيْتُ فَعَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَحَسَنَ الْمُوَازَرَةِ وَالْمَكَانِفَةِ. وَإِنْ أَنَا لَمْ أُوفِ لَكُمْ فَلَكُمْ تَخْلَعُونِي...).

نلاحظ من خلال هذه الجملة أولاً: صياغتها مشكّلة ضمن أسلوب الشرط، وأمّا المقابلة تشكّلت بفضل الفعل (وَقَيْتُ) الذي وردَ موجب، والضّمير (عليكم) في العبارة الأولى، وفي العبارة الثانية، فوردَ فيها الفعل نفسه منفي (لم أوف) ومع الضّمير (لكم) مقابلًا على الترتيب، ومفاد ذلك يشير إلى أنّ الخطيب يحاول أن

يرغب رعيته في نفسه حول توليه الخلافة، لتبقى حجته قائمة في حالة تراجعها عن وعوده التي قطعها على نفسه أمامهم وذلك بامتلاكهم الحق في خلعه من الحكم، ومدار ذلك يسعى إلى استمالة قلوبهم، وكسب المزيد من الثقة لتعزيز حجته، هذه عن طريق المقابلة هذه.

ثالثاً: الوسائل شبه المنطقية

نلاحظ أن الخليفة يزيد، استدرك المتلقي بغية إقناعه واستمالته عبر محطات حجاجية عديدة، من بينها الوسائل شبه المنطقية، كما عالجها عبد الله صولة في كتابه نظرية الحجاج، والتي تركزت في موضوع حسن من سرجه الحجاجي، لنجدها تستمد قوتها الإقناعية من مشابقتها للطرق الشكلية والمنطقية في البرهنة، فبذلك تهدف إلى إمعان الفكر اتجاه ما يطرحه الخطيب من حجج يمكن التسليم بها، ويتجلى ذلك فيما يلي:

1) تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له:

يقوم هذا الصنف على أجزاء ملامة ومكونة لكل مجمل تستدعي التقسيم (Division) وذلك للبرهنة عليه ومدى إثباته، ويظهر ذلك في المثال الآتي: (...وَلَكُمْ عِنْدِي أَعْطِيكُمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ، وَأَرْزَأُكُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ، حَتَّى تَسْتَدِيرَ الْمَعِيشَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ...)، وهنا تكمن النتيجة الكلية في استدارة المعيشة بين المسلمين، ولكن كيف تتحقق هذه المعيشة؟

فيكون ذلك إلا بالأجزاء التي ذكرها قبلها، وذلك بتقديم لهم الأعطيات في كل سنة، وتقسيم الأرزاق في كل شهر، فكان ذلك على سبيل ترتيب تنازلي للزمن من الأعلى إلى الأسفل.

الغرض من هذا التقسيم هو البرهنة على وجود مجموع، والمتمثل في أن الجميع سيحظى بعيش كريم، مُنافٍ تماماً للوضع الذي كان سائداً قبله، كما كان يشير دائماً، مفصلاً لذلك بالتحديد الدقيق، وهذا بسبب حرصه على إضاء جمهوره وإقناعه بشئى الوسائل.

2) الحجج القائمة على العلاقة التبادلية Argumentation de réciprocité وعلى قاعدة العدل:

ويقتضي هذا النوع من الحجج معاملة واحدة، لتطبيق قاعدة العدل (La règle de justice) ونوضح ذلك في المثال الآتي: (فَإِنْ أَنَا تَبْتُ قَبْلُكُمْ مَتًى، وَإِنْ عَرَفْتُمْ أَحَدًا يَقُومُ مَقَامِي مِمَّنْ يُعْرِفُ بِالصَّلَاحِ، يُعْطِيكُمْ مِنْ نَفْسِهِ مِثْلَ مَا لَأَعْطِيكُمْ، فَأَرَدْتُمْ أَنْ تُبَايَعُوهُ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعَهُ، وَدَخَلَ فِي طَاعَتِهِ).

نفهم من ذلك أن الخليفة يحاول أن يقول بأن الخلافة أمر عظيم، ولا يجب أن تسلم إلا لمن يستحقها بالفعل وبقية ذلك وفق شرط أساسي وهو رضى الرعية، فنجد أنه يُوجب الطاعة عليهم إذا أوفى بواجبه، وإن أخطأ وتاب فعلى الرعية أن يقبلوا بذلك أيضاً، ثم يعكس الأمر من جهة أخرى ويبدل غيره بنفسه، إن وجد ممن يُرشد إلى الصلاح ويُقوم الإغوجاج وكان للرعية رغبة فيه فيتركها له، وهذا بالذات يستدعي حصول نقطة الاشتراك والتبادل بينه وبين مُرشح آخر قد يأتي مكانه، لتولي أمر الخلافة، وهنا نستنتج أن قاعدة

العدل لدى يزيد اقتضت معاملة واحدة بينهما، ومفاد ذلك يتلخص في أَنَّ الخطيب أحبَّ الخلافة لغيره كما أحبَّها لنفسه يا ترى!

(3) وجوه الاتصال التتابعي:

يندرج الاتصال التتابعي (Liaison de succession) ضمن الحجج المؤسسة على بنية الواقع، التي تستعين بالحجج شبه المنطقية للربط بين أحكام مسلم بها، وربما أحكام يسعى الخطاب إلى تأسيسها وذلك للتسليم بها، ويتضمن الوصل السببي والحجاج كإحدى عناوينه البارزة وأجزائه المكونة له، ونمثل لذلك في المثال الآتي: (وَلَا أَجْمَرُكُمْ فِي تُغُورِكُمْ فَأَفْتِنُكُمْ وَأَفْتِنَ أَهَالِيَكُمْ).

نلاحظ من خلال هذه العبارة: أَنَّ الحجاج هنا يرمي إلى الربط بين حدثين متتابعين واستوفي ذلك معناه كاملاً بواسطة الربط السببي والمتمثل في حرف الفاء الذي جمع بين الحجة ونتيجتها.

ويقصد يزيد حَسَبًا وردَّ عند عمر فروخ في شرحه للخطبة في كتابه «تاريخ الأدب العربي»، لا يُجَمَّر الجيش أي لا يتركه لمدة طويلة في المناطق التي يخشى منها مجيء العدو، وذلك للحفاظ على الحدود الشرعية ومقاصدها لتربية النفس وتهذيبها، وخاصة عندما أتبع بقوله " فَأَفْتِنُكُمْ وَأَفْتِنَ أَهَالِيَكُمْ " أي أجعل عيونكم تمتد إلى النساء، في المناطق الموجود فيها، وكذا الأمر نفسه مع أهاليكم، وهو بطبيعة الحال ينهى عن حصول ذلك.

خاتمة

الخطبة من إبداع يزيد بن الوليد تهدف إلى رصد بعض النقاط الأساسية التي يعكس لها واقع السياسة الأموية:

- الوضع الذي كان يعيشه المسلمون قبيل تولي الخليفة يزيد الحكم في عهده، فزاد الصورة ظلاماً في الأذهان نتيجة لما آلت إليه الخلافة في ذلك العصر، فكان ابن عمّه بالحسب والنسب، كما صوّره لنا جباراً عنيداً، المستحل لكل حرمة والراكب لكل بدعة... وفي هذه الحالة لا يصلح في نظر العامة للخلافة، فالخليفة له معايير تؤهله لذلك، ويعدُّ والمرأة التي ينظر منها الشعب إلى تصرفاته.
- بعد زوال الخليفة الوليد بن يزيد، حلَّ عهداً جديداً من عمر الخلافة الإسلامية، يُطمئن فيه الخليفة يزيد بن الوليد المسلمين، ويعدّهم بتأسيس منهج صالح يقوم عليه الحكم الإسلامي، مبرِّراً ذلك لرعيته، ومحددًا جزءاً من أبعاد النظرية السياسية التي سارت عليها الخلافة الأموية، بحيث يعدّ المنطلق المرصود لدى الخطيب، يمنح الجمهور فرصة الاستقامة على طريق الحق، ويرتكز ذلك دائماً على مدى نواياه، فهذه إحدى الطرُق التي حرَّكتها فاعلية الحجاج داخل الخطبة.
- لonnظر من الزاوية التي يتحدث منها الخطيب، نجده قد أحسن التبرير لإثبات رأيه، والذي ينصّ على فعل الخير، أي سياسة تقوم على نصره القّ والدين وتنظيم حياة المسلمين هذا من جهة، أما من جهة

أخرى يمكن للدّارس أن ينظر من زاوية أنّ الحجج المَوْظَّفة، تعبر عن رأي صاحبها وتحاول تبرير أفعاله مهما اتّسع حجمها في دائرة الأفعال الإنسانية عامّة، وإذا حاول أن يوسّع إدراكه، فَيَعْرِجُ بفكره إلى استفسار آخر مفاده: هل يمكن أن يصدّق كلّ حجاج، وليكون المتلقي فلاحه عظيمًا فعليه أن يفرّق بين الصّادق والمغالط.

- فالمسعى الصّادق، أن لا نمارس الخطابة باعتبارها كوسيلة من أجل الوصول إلى منفعة، خاصة التي تهلك بالفرد والمجتمع، وتحقيق مآربٍ لا تليق بهذا الفن ونُبَل موضوعاته، بل يجب أن يكون مسلكها سبيل يقتنع به السّامع على أساس الحقيقة، وتكون كما يتمثّل الصّدق: فالصّدق جوهره إذا سقطت في القاع، أنبَتّت منافع كثيرة، ثمارها حلوة وقطافها وافر، والسّبب في ذلك راجع في تربيتها للأجيال وبعثها لروح المؤمن، وصقلها لطريقة تفكيره.
- أخيرا جعلت هذه الآليات التي درّسناها في الخطبة، الخطاب يبدو عملاً فنيًا ينم عن كثير من المهارة، بحيث يصعب على الدّارس أحيانًا التّمييز بين الواقع والحقيقة فيه.

الهوامش:

- ¹ ابن فارس، مقاييس اللّغة، تحقيق وضبط عبد السّلام محمّد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م، مج 2، ص30، مادة (حج).
- ² ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د،ط)، (د،ت)، مج 2، ص288، مادة (ح ج ج).
- ³ الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق محمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، ج1، ص169.
- ⁴ عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكلياني للنشر، تونس، ط1، 2011م، ص13.
- ⁵ أبوبكر العزّاوي، اللّغة والحجاج، منتديات سور الأزيكية، ط1، 2006م، ص14.
- ⁶ طه عبد الرّحمن، اللّسان والميزان أو التّكوثر العقلي، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 1998م، ص226.
- ⁷ ينظر، محمود شاكر، التّاريخ الإسلامي - العهد الأموي، المكتب الإسلامي، ط7، 2000م، ج4، ص264.
- ⁸ ينظر، عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1982م، ج1، ص289 ص291.
- ⁹ الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م، ج2، ص141 ص142.
- ¹⁰ عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربيّة علم المعاني، البيان، البديع، دار النّهضة العربيّة، بيروت، (د،ط)، (د،ت)، ص68.
- ¹¹ محمّد أحمد قاسم، محي الدّين ديب، علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني، المؤسسة الحديثة، طرابلس، لبنان، (د،ط)، 2008م، ص306.
- ¹² يحيى بن حمزة العلوي، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق عبد الحميد هنداي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2002م، ج2، ص94.
- ¹³ جمال إبراهيم قاسم، النّحو الميسّر، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط1، 2012م، ج2، ص355.
- ¹⁴ ابن رشيق، العمدة في محاسن الشّعروآدابه ونقذه، حقّقه وفصله وعلق حواشيه، محمّد محي الدّين بن عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م، ج1، ص271.
- ¹⁵ ابن رشيق، العمدة، ص286.

- ¹⁶ الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، المعاني والبيان والبدیع، وضع حواشیه إبراهيم شمس الدین، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002م، ص 248.
- ¹⁷ ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدّمه وعلّق عليه أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار النهضة، مصر، للطباعة والنشر، القاهرة، (د،ط)، (د،ت)، ج1، ص210.
- ¹⁸ ابن المعتز، كتاب البديع، شرحه وحققه عرفان المطرجي، مؤسّسة الكتب الثقافية، ط1، 2012، ص60.